تشكيل الهُويّة والانتماء عند درويش في ديوان «لماذا تركت الحصان وحيدا»

د. معاذ إشتية

الملخص:

تسعى هذه الدراسة للبحث في تشكيل الهوية عند درويش في ديوان «لماذا تركت الحصان وحيدا» الصادر بطبعته الأولى عن دار رياض الريس في بيروت، سنة 1995م؛ ويعد هذا الديوان تحولا في خطاب درويش الإبداعي بالمقارنه مع خطابه الشعري في دواوينه السابقة، حيث يشكل في بنائه سيرة ذاتية ، ويتصل بأحداث وظروف تتصل بحياة الشاعر على المستويين العام والخاص، وقد انعكس ذلك على قصائد هذا الديوان وخاصة فيما يتصل بتشكيل الهوية التي جاءت تقوم على ثلاثة عناصر؛ هي الذات بمفهومها الفردي، والماضي، إضافة إلى اللغة في إطار المشروع الشعري الذي شكل هاجسا في المرحلة الأخيرة من حياة الشاعر الإبداعية.

ABSTRACT

This study seeks to investigate the formation of the identity by Darweesh in the collection of poems "Why Did You Leave the Horse Alone?" in its first edition issued by Dar Riyd Al-Rayyis in Beirut in 1995. This collection of poems is considered a transformation in the creative poetic discourse of Darweesh as compared with his poetic discourse in his previous collections of poems. In its structure it forms a curriculum vita, and it is connected with events and circumstances which are related to the life of the poet on the public and the private levels. This was reflected on the poems of this collection specially in what is related to the formation of the identity which was based on three elements which are the self in its individual conception, the past ,in addition to the language in the framework of the poetic project which formed an obsession in the last stage of the poet's creative life.

أهمية البحث:

تبرز أهمية البحث في كونه يتناول تشكيل الهوية في ديوان «لماذا تركت الحصان وحيدا» الذي يشكل منعطفا فنيا على مستويي الشكل والمضمون في شعر درويش، كما أنه يؤسس لاتجاه جديد في تجربته الشعرية في مرحلة أصبح فيها الشاعر أكثر استجابة للنزعات الذاتية، بسبب التحولات الجديدة التي فرضتها الظروف الدولية على القضية الفلسطينية، وانعكاسها على تطور الوعي لدى الشاعر وحرصة على تطوير معماره الشعري.

ولا شك في أن البحث سيؤسس لدراسات نقدية في شعر درويش من شأنها أن تبرز مقومات الهوية في مجموعاته الشعرية اللاحقة، علما أن الشاعر في هذه المرحلة أخذ يضفي على شعره بعدا إنسانيا، وراح شعره يأخذ صفة العالمية.

مشكلة البحث وتساؤلاته:

ينطلق البحث من تساؤلين اثنين:

ما هي الظروف المتصلة بتشكيل الهوية في ديوان « لماذا تركت الحصان وحيدا»؟

ما هي مقومات الهوية في ديوان «لماذا تركت الحصان وحيدا» ؟

منهج البحث:

يعتمد الباحث في دراسته على المنهج الوصفي التحليلي؛ حيث يستنطق النص الشعري ويحلل اللغة الشعرية في سبيل الوقوف على العناصر المكونة للهوية في الديوان.

أقسام البحث:

قُسّم البحث إلى:

- **المقدمة:**
- **المحور الأول:** الديوان بين رفض الواقع وتشكيل الهوية .
- **المحور الثاني:** تشكيل الهوية والانتماء في ديوان « لماذا تركت الحصان وحيدا»

المقدمة:

تتشكل الهوية من مجموعة من العناصر والمقومات التي يتخذها الإنسان ملامح دالة على وجوده، والمتتبع لمقومات الهوية في شعر درويش على امتداد مسيرته الأدبية يجد أنها تتشكل من مقومات تتصل بالظروف المحيطة بالتجربة الإبداعية وتستمد مكوناتها من تطور الثقافة والرؤية الجديدة للحياة، وقد ذهب بعض الدارسين مذهبا رأى فيه أن الوعي بالهوية وصناعتها ينتج في الدرجة الأولى عن عملية صراع، كما رأوا أن الهوية تتغير بفعل الفرد وإرادته،[1] ويرى أدونيس أن الهوية في حالة حركة دائمة، وأن الإنسان هو من يبدع هويته ويكونها [2].

وقد كان التعبير عن الهوية بمفهومها الجمعي وما يتصل بها من أمة ووطن وأرض وشعب وقضية سمة لازمة في شعر درويش منذ دواوينه الأولى،لكن التعبير عن الهوية بمفهومها الفردي (الذاتي) ارتبط بالمرحلة الأخيرة من تجربته الشعرية التي بدأت بديوانه «لماذا تركت الحصان وحيدا» 1995م، من هنا، تأتي هذه الدراسة؛ لتقف على أبرز العناصر التي أسهمت في تشكيل الهوية في الديوان المذكور؛لأن هذا الديوان شهد تحولا في اتجاهه الفني على مستويي الشكل والمضمون، كما جاء يؤسس لمرحلة جديدة في شعر درويش.

المحور الأول: الديوان بين رفض الواقع وتشكيل الهوية:

يعد الديوان الموسوم بـ «لماذا تركت الحصان وحيدا» تحولا في خطاب درويش الشعري، وقد اتصل هذا التحول بأحداث ووقائع متسارعة ذات صلة بالقضية الفلسطينية التي كانت عنوانا بارزا في شعر درويش على امتداد تجربته الشعرية حتى إصدار هذا الديوان سنة 1995م؛ إذ جاء في مرحلة تتصل بمؤتمر مدريد اتفاقية أوسلو سنة 1993م، وتفجر العمليات الفدائية، وانشقاقات في منظمة التحرير.

ولا شك أن لهذه المرحلة تأثيرا على حياة درويش على المستويين الذاتي والإبداعي؛ فقد استقال من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، كما أنه بدا أكثر نزوعا إلى التعبير عن الذات في ديوانه المذكور ودواوينه اللاحقة؛ علما أن ذلك يتصل بمعطيات ألقت بظلالها على المثقفين والأدباء الذين قرأوا الواقع بصورة مختلفة عن الظاهر فيه؛ فعلى الرغم من الاتفاقات المعلنة إلا أن الاحتلال مازال جاثما على الأرض، والمشروع التحرري بدا في منظورهم مشروعا دعاويا مع وجود مجموعات مقاتلة؛ لذا أصبح للمثقف الخيار إما بالقبول أو بالرفض[3].

1. أبو ندا ، أشرف صقر : الهوية الفلسطينية المتخيلة بين التطور والتأزم ، المستقبل العربي ، العدد 423، أيار مايو 2014م ، ص82.
2. أدونيس وأركون وآخرون : الإسلام والحداثة ، دار الساقي للطباعة والنشر، لندن ، 1990م ، ص67.
3. الخلايلة ، محمود خليل : قراءة في ديوان لماذا تركت الحصان وحيدا ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها ، العدد الأول ، محرم ، 1430 هـ ، يناير 2009م ، ص264.

ويبدو أن درويشا عبّر عن رؤيته للواقع عبر ديوانه «لماذا تركت الحصان وحيدا»، الذي بدا فيه يعبر عن هوية ذات مضامين وعناصر جديدة، تختلف عن الهوية التي عهدها الدارسون في تجربته الشعرية التي تتصل بالمراحل السابقة، فهو في هذا الديوان ينفصل عن هويته المعلنة في تجربته الشعرية السابقة التي عبر عنها في قصائد عدة كقصيدته ذائعة الصيت «بطاقة هوية»:

سجل!

أنا عربي

سلبت كروم أجدادي

وأرضا كنت أفلحها

أنا وجميع أولادي

ولم تترك لنا .. ولكل أحفادي

سوى هذي الصخور ...[4]

ويمكن للدارس تلمس عناصر الهوية في غير قصيدة من قصائد ديوانه «لماذا تركت الحصان وحيدا» الذي جاء يرسم ملامح الهوية الجديدة بالتوازي مع التعبير عن رفض الواقع بأسلوب ساخر، وقد رأى أن الاتفاقات التي صاغت هذا الواقع ومنحت العدو فرصة الاستراحة والعيش في بيته ومكان أحلامه، حيث يصول ويجول تاركاأداة جرائمه فوق كرسي جده، وفي مفارقة غريبة،يرسم صورته وهو يأكل من خبزه ويغفو على مقعده، ،ويفعل كما يفعل الضيف، يقول في قصيدة «عندما يبتعد»:

... في كوخنا يستريحُ العدو من البندقية،

يتركها فوق كرسيّ جدي . ويأكل من خبزنا

مثلما يفعلُ الضيف . يغفو قليلا على

مقعد الخيزران . ويحنو على فرْوِ

قطتنا . ويقول دائما :

لا تلوموا الضحية ![5].

4. نفسه : ص 84.

5. نفسه : ص 84.

وفي القصيدة ذاتها يواصل درويش سخريته من الواقع الذي يعطي لعدوه الحق في العيش في وطنه، حيث نجده يلقي على عدو الأمس الذي أصبح صديق اليوم تحية المساء، ويطلب منه أن ينقل له تحية السلام على البئر والتين والسرو، قبل أن ينصحه أن يمشي الهوينى على ظل أهله في حقول الشعير، وهنا يظهر درويش يأسه من تحقيق الحلم بالعودة إلى بيته في البروة، يقول في القصيدة ذاتها:

تلمع أزرار سترته عندما يبتعدْ

عم مساءً ! وسلّم على بئرنا

وعلى جهةِ التين . وامشِ الهوينى على

ظلّنا في حقول الشعيرِ . وسلّم على سرونا

في الأعالي .... [6] .

ويعبر درويش عن حالة اليأسوالضياع التي يعيشها بعد هذا الواقع الذي فرض على شعبه وأمته، فيرى أنه أصبح بلا حاضر ولا ماض ولا مستقبل، يقول في قصيدة « أمشاط عاجية»:

لو كان لي حاضرٌ آخرٌ

لامتلكت مفاتيح أمسي

ولو كان أمسي معي

لامتلكتُ غدي كلَّه ...[7].

وهكذا، يأتي هذا الديوان ليجسد رؤية متصلة بمعطيات جديدة فرضتها الظروف الدولية، وتركت أثرها على نفس درويش، فكان لا بد من البحث عن مقومات جديدة من شأنها أن تتعالى على الواقع، وترفض الخضوع له، والقبول به؛ لأن في ذلك الخضوع خوفا على الهوية، وتنازلا عن الحلم واستجابة لمحاولات التغييب.

6. نفسه : ص 84.
7. نفسه : ص 84.

المحور الثاني: تشكيل الهوية والانتماء في ديوان « لماذا تركت الحصان وحيدا» :

راح درويش في ديوان « لماذا تركت الحصان وحيدا» يشكل هويته من عناصر عدة يمكن حصرها بالذات بمفهومها الفردي، والماضي، واللغة في إطار المشروع الشعري:

أولا: الذات بمفهمومها الفردي:

بدا درويش في ديوانه « لماذا تركت الحصان وحيدا « أكثر نزوعا إلى الذات، حيث ذهب بعض النقاد مذهبا رأوا في هذا الديوان سيرة ذاتية؛[8] ففيه راح يؤسس لمرحلة الذات (الأنا) في تجربته الشعرية التي امتدت حتى ديوانه الأخير «لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي» الصادر عن دار رياض الريس في بيروت سنة 2009م، وبالنظر إلى تجربته السابقة فإن ديوانه المذكور يشكل بداية التحرر من الانصهار في بوتقة الجماعة التي كانت تشكل ظاهرة في شعره.

والمعروف أن اسم درويش في بدايات مسيرته الشعرية ارتبط بظاهرة أدبية أطلق عليها غسان كنفاني أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ؛ إذ انطوت تسمية هذا الأدب على أساس وظيفته التي تبدأ وتنتهي بالفعل المقاوم ، كما أسند إلى هذا الشعر تحرير الأرض من الاحتلال ، وأخذ هذا الشعر يعبر عن صوت جماعي يتجاوز الأسماء المفردة الخاصة بالشعراء [9].

وتجدر الإشارة إلى أن درويشا في المراحل اللاحقة من مسيرته الإبداعية أخذ يضيق ذرعا بهذا اللقب ،الذي ارتبط بشخصيته الإبداعية بوصفه «شاعر المقاومة»؛ إذ أعرب عن رفضه لهذا اللقب؛ وقد رأى أنه لا يجوز اختصار القول الشعري على وظيفة محددة؛ إنما هناك وظائف أخرى للشعر كالحب والموت ومساءلة المجهول، كما أنّ الشعر يجب أن يكون كونيا يتأمل أحوال الإنسان في جميع الأمكنة والأزمنة [10].

وإذا كان درويش قد سلك اتجاها جديدا في الشعر، فإن ذلك لا يعني أنه تخلى عن فلسطينيته كما يزعم بعض النقاد، وقد عبر درويش عن ذلك قائلا: الرأي النقدي يحاول أن يجرّد الشاعر الفلسطيني من شعريته ليبقيه معبّرا عما يسمى مدونات القضية الفلسطينية،.. طبعا أنا فلسطيني، وشاعر فلسطيني، لكن لا أستطيع أن أقبل بأن أعرّف بأنني شاعر القضية الفلسطينية فقط، وبأن يدرج شعري في سياق الكلام عن القضية فقط وكأنني مؤرخ بالشعر لهذه القضية [11].

8. نفسه : ص 84.
9. درّاج ، فيصل : ثلاثة مداخل لقراءة محمود درويش ، مجلة الكرمل ، عدد90 ، 2009م ، ص54
10. نفسه : ص55
11. وازن ، عبده : الغريب يقع على نفسه ، حوار مع الشاعر محمود درويش ، دار رياض الريس ، ط1 ، بيروت ، 2006م، ص 69

وتحمل المقاومة لدى درويش مفهوما يتجاوز المفهوم الذي ارتبط بها؛ إذ يقول: « علينا أن نفهم المقاومة بمعناها الواسع، وليس الضيق» [12]، والمقاومة في إطارها السياسي تشكل شكلا من أشكال الصراع في حياة الإنسان، التي تقوم على صراع مستمر من أجل البقاء فهناك إضافة لصراع الإنسان مع عدوه صراعات أخرى، مثل الصراع الداخلي بين العقل والقلب في إطار ما يعرف بنداء الغريزة « .[13]

ويلاحظ في المرحلة المتأخرة من مسيرة درويش الإبداعية شيوع (الأنا)؛ حيث جاءت أشعاره تحمل صوت الشاعر ببعده الذاتي والفردي الذي يعبر عن رؤياه الخاصة واتجاهه الفكري والفلسفي والتأملي حول كثير من القضايا التي شغلت الإنسان، كالقضايا المتصلة بالوجود والكون والذات والموت والحياة والمرأة [14].

وقد عبّر درويش صراحة عن استجابته إلى النزعات الذاتية التي تتفاعل في نفسه،حيث يقول: « أنا شديد الانتباه لهذه المسألة، وإلى الالتفات إلى صوت الذات،صوت الأنا، وليس بمعنى الأنا الضيقة؛ فالأنا تحتوي في داخلها أكثر من أنا،فهي تتشظى،وعلى الشعر أن ينطلق في إصغاء دقيق للأنا في تفاعلها مع الأنوات الأخرى»[15].

وهكذا فإن درويشا في هذا الديوان أخذ يلتفتإلى الذات بمفهومها الفردي ولعل ترجمة الصوت المختزن في داخلها يتصل بانهيار الحلم الذي أحس به درويش بعد أن أصبح يشعر بالتشظي والانفصال عن الماضي المتمثل بالبيت والأهل والوطنالذي رافقه في داخله طوال حياته بالمنفى،يقول في قصيدة «أرى شبحي قادما من بعيد»:

أطلّ على صورتي وهي تهرب من نفسها

إلى السلم الحجري ، وتحمل منديل أمي

وتخفق في الريح : ماذا سيحدث لو عدت

طفلاً؟ وعدت إليكِ ... وعدتِ إليّ [16].

12. وازن : الغريب يقع على نفسه ، ص113.

13. نفسه :ص 67.

14. المهداوي ، صفاء عبدالفتاح : الأنا في شعر محمود درويش،دراسة فنية سسيوثقافية من (1995–2009 م)، بإشراف نايف العجلوني ،جامعة اليرموك ، 2010 م ، ص54.

15. العوني ، شمس الدين : محمود درويش : القضية الفلسطينية في مهمة شعرية ، موقع مجلة الحرية ، http//www.alhorriah.org//page=ShowDetailils&table=lecture

16. نفسه : ص 84.

وتظهر الذاتية لديه حين يسترجع سيرته في غير قصيدة ، حيث يبدأ هذه السيرة منذ صرخته الأولى، فيرسم لنا تجذرهبالمكان وتوحد صرخته معه، يقول في قصيدة « في يدي غيمة»:

يولد الآن طفلٌ،

وصرخته،

في شقوق المكانْ [17].

ويقف على لحظات التهجير الأولى التي ما زالت تترك أثرها في نفسه، إذ لم يكن في تلك المرحلة يعي محيطه وكان عليه أن يكون جزءا من تغريبة شعبه، يقول في قصيدة « قرويون من غير سوء» :

لم أكن بعدُ أعرف عادات أمي ، ولا أهلها

عندما جاءت الشاحنات من البحر [18].

ويتابع مراحل التهجير والمشاعر التي ارتبطت بها، فهو لم يكن خائفا لأن طفولته التي تركها خلفه ولدت لديه إحساسا بأمل العودة، يقول في القصيدة ذاتها:

لكننا لم نكن خائفين . لأن طفولتنا لم

تجئ معنا . واكتفينا بأغنية : سوف نرجع

عما قليل إلى بيتنا ... [19]

ويرسم ملامح الليلة التي وصل فيها إلى الحدود اللبنانية، بعد أن أفرغتهم الشاحنات،وصار يرى وطنه بعيدا، وكان عليه أن يواجه واقعا جديدا، يقول في قصيدة « ليلة البوم»:

حين وصلنا

إلى آخر الشجرات انتبهنا إلى أننا

لم نعد قادرين على الانتباه . وحين

التفتنا إلى الشاحنات رأينا الغيابَ

يكدّس أشياءه المنتقاه [20] .

17. نفسه : ص 84.
18. نفسه : ص 84.
19. نفسه : ص 84.
20. نفسه : ص 84.

ثانياً: الماضي:

يحرص درويش على العودة إلى الماضي في المرحلة الأخيرة من تجربته الإبداعية بعامة وفي ديوانه لماذا تركت الحصان وحيدا بخاصة؛ « فتأثير الماضي على نفسه ظل يلاحقه حتى سني حياته الأخيرة، فهو- كما يبدو- لا يستطيع الفكاك من سطوته؛ ففي استرجاعه بعث لمراتع الطفولة، وحنين لزهر الصّبار والبلوط المشوي على المواقد، واستذكار للجد، وتعبير عن الخوف من المستقبل، وهروب من بؤس حاضر جائع إلى تعريف الهوية، يقول» : ولد الماضي فجأة كالفطر. صار لك ماضٍ تراه بعيدا. وبعيد هو البيت الذي يسكنه وحيدا. ولد الماضي من الغياب. ويناديك الماضي بكل ما ملكت يداه من أزهار الصبّار الصفراء على طريق يصعد فوق التلال، من رائحة الحنين الشبيهة برائحة البلوط المشويّ في المواقد، ومن عباءة جدّك البنية كالتبغ الذي بلله الماء، الخفّاقة كصوت صراع ودّي بين الحكمة والعبث. ولد الماضي كأثداء كلبة توشك على الولادة، من خوفك من الغد ولد الماضي كاملا جاهزا لخطف العروس على حصان الحكاية. من كل ما أنت فيه ومن كل ما فيك من بؤس الحاضر الجائع إلى تعريف الهوية. ولد الماضي» [21].

إن بعث الماضي وتأمله يتحول إلى دواء يُستطب به ،ربما يستطيع عبر بعثه أن يستعيد العافية التي فقدها، فيعي ما لحق به، يقول: «سأجعل الليل إثمدا لأستعيد عافية الماضي وأداوي بها حمى أصابت الأرض المتشعبة فيَّ كالنَّجيل. وأهذي وأعرف أنّي أهذي، ففي الهذيان وعي المريض برؤياه، لأنه أنبل مراتب الألم» [22].

ويرى درويش أن « مسافة الحرمان تجمّل الماضي وتجعله وكأنه هو هدف الأحلام التي نخترعها لكي نتغلب على وطأة الراهن الثقيلة» [23].

ويشكل الماضي المتصل بالذات الشاعرة مقوما آخر من مقومات الهوية الجديدة التي يعبر درويش عنها، ويحاول أن يحتمي بالماضي الذي بدا أرضا صلبة مقارنة مع الحاضر، يقول: «أنا دائما مشغول بمشروع شعري وليس منفصلا عن الواقع، وإنما أحاول أن أخلق مسافة بيني وبين الراهن، أي أنني لا أستطيع أن أتعامل مع الواقع الملموس من خلال نظرته الراهنة، فلا بد أن أقف على أرض صلبة هي أرض الماضي، لأنني أعتقد أن المرحلة الزمنية الوحيدة الصلبة هي الماضي، فالحاضر متذبذب ومتحرك وينتج ما فيه كل ساعة، .... ومن هنا رأيت أن أرضي الباقية هي أرض الذاكرة ،ذاكرة المكان والإنسان والشعب والتاريخ، لذلك رويت سيرتي الذاتية ،من خلال عمل شعري يصور مرحلة الطفولة» [24].

21. درويش ، محمود : في حضرة الغياب ، رياض الريس للكتب والنشر ، بيروت ، ط2، 2009، ص46
22. نفسه : ص46 –47.
23. عبد ربه ، محمد : محمود درويش من المهد إلى اللحد ، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع ، عمان ، ط1، 2009م ، ص168.
24. القدس العربي ، 1994/1/13م ، خلال حوال له في أبو ظبي .

ويعبر درويش في ديوان « لماذا تركت الحصان وحيدا « عن الانتماء للماضي والولاء للوطن بصورته التي حفظتها الذاكرة ، فيظهر كأنه فردوس مفقود يزخر بالخير والعطاء ، يقول في قصيدة « في يدي غيمة « :

... سبع سنابل تكفي لمائدة الصيف .

سبع سنابل بين يديّ . وفي كل سنبلةٍ

يُنبتُ الحقل حقلا من القمح [25].

والانتماء للماضي هو حنين للبيت بصورته التي مازالت في ذاكرته تنبض بالحياة ؛ وما زال يحفظ ملامحه عن ظهر قلب؛ فالياسمين يطوق بوابته، ودعسات ضوء الشمس تسطع على درجه الحجري، وعباد الشمس يشرئب على جنباته، والنحل الأليف يعد العسل لجده ، وفي باحة البيت بئر وصفصافة وحصان، يقول في قصيدة «إلى آخري وإلى آخره ...» :

. هل تعرف البيت، يا ولدي

. مثلما أعرف الدرب أعرفُهُ :

ياسمينٌ يطوّقُ بوابةَ من حديد

ودعساتُ ضوءٍ على الدرج الحجريِّ

وعبّاد شمسٍ يحدّق في ما وراء المكان

ونحلٌ أليفٌ يعد الفطور لجدي

على طبق الخيزران ،

وفي باحة البيتِ بئر وصفصافة وحصانْ

وخلف السياج غدٌ يتصفح أوراقنا ... [26]

وفي إطار التعبير عن الولاء للماضي إظهار لارتباطه بوطنه الذي يتجسد بعكا؛ وذلك منحه فرصة التعريض بالآخر الذي سلبه وطنه، وحاول فرض سيطرته عليه عبر استناده لخرافات وأساطير ذات صبغة دينية، كما اعتمد على منطق قوة الملك الفرعوني تحتمس في فرض إرادته، من هنا، فهو يرى أن كل محاولات الآخر التي تهدف إلى قطع أواصر الصلة بوطنه لن تفلح، وعليه، فهو يحذر من أشياء أخرى ستحدث لا محالة، إذ يتنبأ بمستقبل دموي، عندما يرى أن الغيم سيرتفع أحمر فوق صفوف النخيل، يقول:

25. نفسه : ص 84.

26. نفسه : ص 84.

رسوتُ بمينائها لا لشيء سوى
أنّ أمي أضاعت مناديلها ههنا...
لا خرافةَ لي ههنا . لا أقايض
آلهةً أو أفاوضُ آلهةً . لا خرافةَ
لي ههنا كي أعبّئ ذاكرتي بالشعيرِ
وأسماءَ حرّاسها الواقفين على كتفيَّ
انتظاراً لفجر تُحُتمس . لا سيفَ لي ،
لا خرافةَ لي ههنا لأطلقَ أمي التي
حمَّلتني مناديلها ، غيمةً غيمةً ، فوق
ميناء عكا القديمة ... عند الرحيل!
ستحدثُ أشياءُ أخرى ،
سيكذبُ هنري على
قلاوونَ ، بعد قليلْ
سيرتفع الغيمُ أحمرَ فوق صفوف النخيلْ...[27]

ثالثا: اللغة في إطار المشروع الشعري:

إن القارئ لهذا الديوان يجد أن درويشا يعلن ولاءه للغة بصورة لا تقبل التأويل أو الشك، وهو ولاء لمشروع الشعر عندما رأى فشل المشاريع الأخرى، فإبداع الشعر يتحول إلى هاجسا وحلما بالنسبة له، فهو به يستطيع أن يخلد نفسه، وقد جاء هذا الديوان مقدمة لديوانه الموسوم بـ»جدارية محمود درويش» (2000م) الذي يشكل مع ديوانه «لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي» (2009م) امتدادا لهذا الحلموإنجازا جديدا في إطار تحقيقه؛ ففي ديوان (الجدارية) كتب مطولة شعرية رشحها لتكون هوية شعرية تخلده بعد موته [28]، أما في ديوانه «لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي» فيصوغ أمنياته، ويعبر عن إحساسه بانقضاء الزمن في مرحلة يرى فيها أنه لم يقل بعد كلمته الأخيرة في الشعر [29] .

والقارئ لديوان «لماذا تركت الحصان وحيدا « يجد أن الكتابة باللغةتظهر بوصفها مظهرا دالا على الحياة

27. درويش : لماذا تركت الحصان وحيدا ،ص85-86

28. المساوي ، عبدالسلام : جماليات الموت في شعر محمود درويش ، دار الساقي ، بيروت، ط1 ، 2009م ، ص50.

29. إشتية ، معاذ : مكونات الإبداع الفني في أعمال درويش الأخيرة من سنة (1995-2009م) ، رسالة دكتوراه ، بإشراف الأستاذ الدكتور خليل الشيخ ، جامعة اليرموك ، الأردن ، 2012م ، ص70.

،وأسلوبا حضاريا معبرا عن الهوية؛ ففي حواريته مع الغيب يعبر عن تردده في الكتابة بعد شعوره بضياع الهوية، ثم يرى في الكتابة توثيقا للتاريخ والقضية من جهة، وفعلا مقاوما في وجه محاولات التغييب من جهة أخرى، حيث تسهم في الحفاظ على مقومات وجوده، يقول في قصيدة « قال المسافر للمسافر لن نعود كما ...»:

وفي الصحراء قال الغيب لي :

اكتب !

فقلت على السراب كتابة أخرى

فقال اكتب ليخضرَّ السرابُ

فقلت :ينقصني الغيابُ

وقلت : لم أتعلم الكلماتِ بعدُ

فقال لي : اكتب لتعرفها

وتعرف أين كنت ، وأين أنتَ

وكيف جئتَ ، ومن تكونُ غداً،

ضع اسمك في يدي واكتبْ

لتعرف من أنا ، واذهب غماما

في المدى

فكتبت ، من يكتب حكايته يرثْ

أرض الكلام ، ويملك المعنى تماما! [30].

وفي قصيدة « قافية من أجل المعلقات» التي تعبر في مضمونها عن هوية درويش اللغوية؛ حيث يعلن صراحة انتماءه للغة، وما ينبثق عنها من أدب، ونجده ينصهر في بوتقتها، ويتحد معها، وفيها تظهر العملية الإبداعية قضيته الأسمى، وعنوانا دالا على وجوده، كما يرسم طبيعة علاقته بالكلمات وخضوعه لسحرها تارة، وقدرته على تطويعها تارة أخرى؛ في سبيل حمل فكره الذي يتحول إلى طائر يتفرع منه.

...من أنا؟

هذا سؤال الآخرين ولا جواب له ، أنا لغتي أنا ،

أنا معلقة ...معلقتان... عشر، هذه لغتي

30. نفسه : ص 84.

أنا لغتي

أنا ما قالت الكلمات :

كن

جسدي ،فكنت لنبرها جسدا. أنا ما

قلت للكلمات كوني ملتقى جسدي مع

الأبدية الصحراء .كوني كي أكون كما أقول

لا أرض فوق الأرض تحملني فيحملني كلامي

طائرا متفرعا مني ...[31].

ويرى درويش أن اللغة وحدها ستحفظ وجوده؛ فهي ليست ماضيا إنما هي حاضر ومستقبل، لذا نجده يعتمد عليها، و يلجأ إليها، ويحتمي بها، ويقدم نفسه عبرها، لأن المراهنات عليها أثبتت فشلها، فهي وحدها التي ستحفظه، وهنا، يعوّل على مشروعه الشعري الذي سيكون هوية دالة على وجوده حاضرا وغائبا، وفي ذلك رؤية فلسفية ترى أننا يمكن أن نغيّب في الظاهر لكننا حاضرون بأدبنا الذي حفظ لنا هويتنا، وبقي شاهدا علينا، يقول:

فلتنتصر لغتي على الدهر العدو

على سلالاتي ، عليّ على أبي ، وعلى زوال لا يزول

هذه لغتي ، ومعجزتي

عصا سحري

حدائق بابلي ومسلتي ، وهويتي الأولى ،

ومعدني الصقيلُ

ومقدّس العربي في الصحراءِ ، ...[32]

31. نفسه : ص 84.
32. نفسه : ص 84.

نتائج البحث :

1. يشكل ديوان « لماذا تركت الحصان وحيدا» تحولا في خطاب درويش الشعري .
2. ارتبط التحول الخطاب الشعري في ديوان «لماذا تركت الحصان وحيدا» بالتحولات التي طرأت على الواقع الفلسطيني بعد أوسلو 1993م .
3. شكلت الهوية عنوانا في الخطاب الإبداعي على امتداد تجربة درويش الشعرية .
4. تعد الذات بمفهومها الفردي مقوما رئيسا في تشكيل الهوية في ديوان « لماذا تركت الحصان وحيدا»
5. ظهر الماضي بوصفه مقوما في تشكيل الهوية لدى درويش في ديوان « لماذا تركت الحصان وحيدا»؛ وذلك كمحاولة للهروب من الحاضر الذي لم يحقق الجلم الذي عاش من أجله الشاعر .
6. حرص درويش على تقديم اللغة في إطارها الإبداعي بوصفها مقوما دالا على هويته .

المصادر والمراجع والرسائل والدوريات:

- أبو ندا ، أشرف صقر : الهوية الفلسطينية المتخيلة بين التطور والتأزم ،المستقبل العربي، العدد 423، أيار مايو 2014م
- أدونيس وأركون وآخرون : الإسلام والحداثة ، دار الساقي للطباعة والنشر، لندن ، 1990م .
- إشتية ، معاذ : مكونات الإبداع الفني في أعمال درويش الأخيرة من سنة (1995-2009م) ، رسالة دكتوراه ، بإشراف الأستاذ الدكتور خليل الشيخ ، جامعة اليرموك ، الأردن ، 2012م .
- الخلايلة ، محمود خليل : قراءة في ديوان لماذا تركت الحصان وحيدا ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها ، العدد الأول ، محرم ، 1430 هـ ، يناير 2009م.
- درّاج ، فيصل : ثلاثة مداخل لقراءة محمود درويش ، مجلة الكرمل ، عدد90 ، 2009م .
- درويش ، محمود : الديوان ، دار العودة ، ط13، بيروت مج1 ، 1989م .
- درويش ، محمود : لماذا تركت الحصان وحيدا ، رياض الريس للنشر ، بيروت ، 1995م .
- درويش ، محمود : في حضرة الغياب ، رياض الريس للكتب والنشر ، بيروت ، ط2، 2009.
- الشيخ ، خليل : السيرة والمتخيل قراءات في نماذج عربية معاصرة ، إزمنة للنشر والتوزيع ، عمان ، ط1، 2005م ، ص175.
- عبد ربه، محمد: محمود درويش من المهد إلى اللحد، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2009م.
- العوني ، شمس الدين : محمود درويش : القضية الفلسطينية في مهمة شعرية ، موقع مجلة الحرية ، http//www.alhorriah.org//page=ShowDetailils&table=lecture
- المساوي ، عبدالسلام : جماليات الموت في شعر محمود درويش ، دار الساقي ، بيروت، ط1 ، 2009م.
- المهداوي ، صفاء عبدالفتاح : الأنا في شعر محمود درويش،دراسة فنية سسيوثقافية من (1995-2009 م)، بإشراف نايف العجلوني ،جامعة اليرموك ، 2010 م ، ص54.
- القدس العربي ، 1994/1/13م ، خلال حوال له في أبو ظبي .